حضارة الإسلام

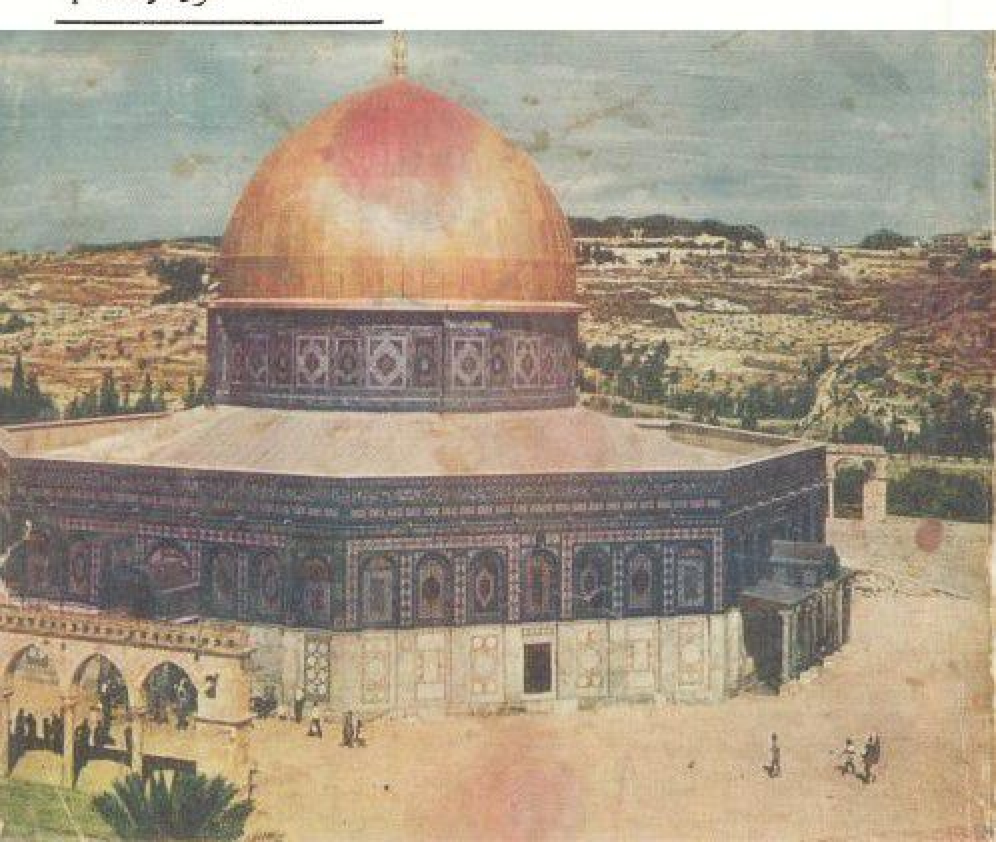
العددان ٥ و ٦
السنة العاشرة

مجلة فكرية جامعة

رجب وشعبان ١٣٨٩
أيلول وتشرين الاول ١٩٦٩

الأخلاق المحاربة

اللواء الركن : محمود شيت خطاب





الاخلاق المحاربة

تحت هذا العنوان كتب اللواء الركن محمود شيث خطاب في مجلة « الوعي الاسلامي » الكويتية يقول :

« الذي اعلمه علم اليقين ، ولا اشك فيه ابدا ، هو ان الملوث جنسيا او الملوث جيبيا ، لايمكن ان يقاتل في الحرب كما يقاتل الرجال .

وأريد بالملوث جنسيا ، الذي تردى في مهاوي الرذيلة فسقا وفجورا ، يقضي ايامه مفكرا في البغايا ، ويقضي لياليه في معاشرتهن ، ويكشف ذيله على ماحرم الله ، ويطمع في اعراض الناس .

واقصد بالملوث جيبيا ، الذي دخل جيبه المال الحرام رشوة من الراشين أو غشا في البيع والشراء او جمعا للمال من طرق غير مشروعة .

واقرر هذا المبدا اعتمادا على تجربتي العملية في الحروب ، واستنادا الى دراساتي لتاريخ الفتح الاسلامي العظيم ، والى ما قرره القادة العظام الاقدمون والمحدثون على حد سواء .

وارجو الا يقول قائل : كيف اذن ينتصر الغربيون ــ مثلا ــ في الحروب ، وهم ملوثون جنسيا ؟

ان الذين يزعمون بأن كل الاجانب ملوثون جنسيا مخطئون كل الخطأ ، او واهمون كل الوهم او مغرر بهم كل التغرير . .

ولقد عشت ردحا طويلا في بلد اجنبي من البلاد الاوربية ، فوجدت ان فيهم البر والفاسق ، ولكن مصدر قوتهم يكمن بالمتمسكين بالفضيلة قولا وعملا ، وما اكثرهم هناك .

ومشكلة اكثر الذين يفدون الى الغرب من الشرقيين ، هي انهم ينحدرون بأنفسهم الى مستوى الخادمات واكثرهن منحرفات اخلاقيا ، ولا يرتفعون بأنفسهم الى مستوى ذوي الشرف الرفيع المتمسكين بدينهم وتقاليدهم العريقة ومثلهم العليا .

وحين يعود هؤلاء الشريقون الى اوطانهم ، يظنون خطأ ان الشعب الاجنبي الذي عاشوا في بلدة وقتا من الزمن هو بمستوى اولئك الخادمات اللواتي عاشروهن وحدهن من بين ذلك الشعب الاجنبي .

وليس الذنب ذنب الشعب الاجنبي الذي يحكمون عليه كله بما فيه من خير وشر بجزئه بما فيه من شر ، انما الذنب ذنب اولئك الشرقيين الذين استبدلوا الذي هو ادنى بالذي هو خير ، فاختاروا الرذيلة دون الفضيلة ، وآثروا الظلام على النور .

والقلائل من الشرقيين الذين صانوا انفسهم من الدنس ، وحاسبوا أنفسهم مرتين قبل ان يقدموا على ما يعيب : مرة لالتزامهم بالدين الحنيف ، ومرة لانهم غرباء في محيط يحصي عليهم كل صغيرة وكبيرة يقترفونها .

هؤلاء القلائل من الشرقيين ، راوا عجبا من تمسك الاجانب الغربيين في بلادهم بأهداب الشرف والفضيلة ، وابتعادهم عن كل ما يخل بالصدق والامانة ، وتجنبهم كل ما يخل بالمروءة والخلق الرفيع .

ـ ٢ ـ

اذكر ان جماعة من العراقيين كانوا يعيشون مع عائلة اجنبية في دارها ، وكانت تلك العائلة مؤلفة من زوج وزوجة وامها ، وكان لديهم ثلاثة اولاد وبنت واحدة ، وكان أكبر الاطفال عمره ثماني سنوات .

كنت مع العراقيين الذين يساكنون هذه العائلة الاجنبية في البلد الاجنبي ، حين كنت استكمل دراستي العسكرية في دورة الضباط الاقدمين (الضباط العظام كما يطلق عليهم في قسم من الجيوش العربية) .

كانت كل غرفة من غرف الدار ، فيها ما لا يقل عن ست صور مؤطرة باطارات فخمة للسيد المسيح عليه السلام وللعذراء وللقديسين .

وكانت تلك الصور موضوعة على الجدران ، بحيث تقع عين ساكن الغرفة في تلك الدار على احدى الصور في كل الاتجاهات .

وكان في كل غرفة مكتبة صغيرة كل ما فيها من كتب دينية : العهد القديم والعهد الجديد ، ومعجمات للكتاب المقدس ، ومؤلفات عن حياة السيد المسيح وعن مشاهير القديسين .

وكان والد الاطفال وامهم وجدتهم يسحبون الاطفال سحبا صباح يوم الاحد من كل اسبوع الى الكنيسة ، وكانوا يلقون مواعظهم على اطفالهم صباح مساء بشكل منظم معقول ، يحثونهم بها على التمسك بالدين .

وقد تلقى العراقيون تعليمات محددة من مسؤولي السفارة العراقية ترشدهم الى الطريق السوي في معاملة من يساكنونهم من الاجانب .

من تلك التعليمات عقد أواصر صداقة وطيدة بين العراقيين والاجانب ، وانتهاز فرص المناسبات الاجتماعية والدينية لتقديم هدايا رمزية لمن يشاطرونهم السكن .

وفي أحد الايام ذكرت الجدة وهي عجوز شمطاء ، ان احد الاطفال واسمه (توم) سيحل عيد مولده السادس بعد أيام .

واقترح أحد المراقبين ان يدعو العائلة الاجنبية الى السينما على حسابه تحية لعيد ميلاد (توم) المرتقب .

واعترضت العجوز الشمطاء على هذه الدعوة قائلة : « يجب ان اذهب معك الى السينما قبل يوم من موعد الدعوة ، حتى اتاكد بنفسي من ان الرواية المعروضة خالية مما يضر باخلاق الاطفال » .

وكنا في احد الايام نتناول طعام الغداء على مائدة العائلة ، فتحدث أحد المراقبين بحديث غير مهذب اعتبرته العائلة الاجنبية نابيا لا يليق بأن يقال بحضور الاطفال .

ونهضت العجوز وهي تتمتم بكلام خافت يدل على الاستنكار والاشمئزاز ، وآوى كل ساكن في الدار الى غرفته الخاصة به بعد الغداء وآويت الى غرفتي لاستجم بعض الوقت .

ولم أكد استقر على سريري ، حتى سمعت من يطرق باب غرفتي ، فنهضت وفتحت الباب .

وكان على الباب أحد أصحابي ، فقال : « لقد رمى أهل الدار عفشي في الشارع ، وأوصدوا باب غرفتي !! اترضى بذلك ؟؟ » .

ويومها قلت له : « اذا كنت على حق فكلنا معك ، واذا كانوا على حق ، فانت وحدك .... وعلى نفسها جنت براقش » .

وسمعت العجوز تحاورنا ، فجاءت الى تسعى . قالت : « انكم هنا لناخذ منكم المال حتى نربي به الاطفال تربية خاصة ، فلن نسمح لاحد ان يقول كلاما يضر باخلاقهم ! لقد قال صاحبك ما لا يجوز ولا ينبغي ان يقال على مسمع من الاطفال ... انه قال : .... » .

وقلت لصاحبنا : « الحق مع العائلة ، والحق أحق ان يتبع .... فعليك ان تجد لك سكنا جديدا تأوي اليه » .

وقد رأيت كثيرا من الشخصيات الرفيعة الاجنبية لا يدخنون ولا يعاقرون الخمر ولا يرتادون الملاهي ولا يخلون بمتطلبات الشرف الرفيع ، وكنت أسمع منهم تذمرا شديدا من تردي الخلق وانصراف بعض الناس عن سبيل الحق والخير والرشاد .

المشير مونتكمري اشهر قادة الحلفاء في الحرب العالميــة الثانيــة (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) الف كتابا عنوانه : (السبيل الى القيادة) ، ردد فيه عشرات المرات، ان من اهم عوامل نجاحه قائدا هــو تمسكه بأهداب الدين .

ترى ! هل عزا قائد عربي أو مسلم سر نجاحه الى تمسكه بالدين الحنيف ؟! وماذا سيقال عنه اذا عزا سر نجاحه الى الدين ؟!

ــ ٣

المجتمع في الدول الاجنبية اذن هو قسمان : قسم متمسك بالفضيلة ، وقسم من أشياع الرذيلة .

فريق الفضيلة هو قوة المجتمع الاجنبي وهو قوة لكل مجتمع شرقي وغربي ، وفريق الرذيلة هو نقطــة الضعف في المجتمع الاجنبي وفي كل مجتمع شرقي وغــربي .

وكلمــا ازداد عــدد المتمســكين بالفضيلة ، ازدادت قوة المجتمع وازداد تماسكه ، وارتفع شان البلاد واصبحت ذات اثر وتأثير في الاحداث العالميــة من الناحيتين السياسية والحضارية .

وكلما ازداد عدد أصحاب الرذيلة ازداد ضعف المجتمع وازداد تفسخه ، وتضعضع شأن البلاد ، وأصبحت تجرجر أذيال الخيبة سياسيا وحضاريا .

كتب أندريا موروا في كتاب : (أسباب انهيار فرنسا) في الحرب العالمية الثانية يقول : **« من اهم أسباب انهيار فرنسا هو تفسخ الشعب الفرنسي ، نتيجة لانتشار الرذيلة بين افراده »** .

وكان ما كتبه هــذا الكاتب الفرنسي الكبير حقا لا مراء فيه ، لذلك اراد الجنرال ديغول في أيام رئاسته للجمهورية الفرنسية حتى يوم اســتقالته من منصبه الرفيع يوم ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٦٩ ، ان يحارب الرذيلة في الشعب الفرنــسي ، ويغرس الفضيلة فيه ، لانه كان واثقا بأن الفضيلة هي الاســاس لاستعادة فرنسا مكانتهــا الدولية ، وهي التي تقودهــا الى النصر سياسيا واقتصاديا وحضاريا وعسكريا ، وأن الرذيلة هي الاساس لانهيار فرنسا وقيادتها الى الهزيمة في كل المجالات .

وما يقال عن فرنسا ، يقال عن كل دولة قديمة او حديثة .

والذين تتبعوا تاريخ الامم ، وامعنوا النظر في أسباب بزوغ نجمها سياسيا وحضاريا واسباب أفول نجمها سياسيا وحضاريا ايضا ، يجدون ان الامم ارتفعت

دائما بأخلاقها المحاربة ، وانهارت لتفسخ شعبها أخلاقيا ، وميله الى الترف ومتاع الدنيا الذي هو متاع الغرور .

ما هي أسباب انهيار اليونان ؟ ما أسباب انهيار الرومان ؟ ما أسباب انهيار البابليين والآشوريين في العراق ؟ وانهيار الفراعنة في مصر ؟ ثم انهيار العباسيين في العراق ومصر ؟ ما أسباب انهيار دولة العرب في الاندلس ؟

ان دراسة قصة الحضارة في العالم ، تعطي الجواب السليم !

— ٤ —

لقد أدرك السلف الصالح أهمية الخلق الكريم في احراز النصر .

ولو اردت استعراض اقوال السلف الصالح ، وعلى راسهم الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ، لبعد الشوط ، ولطال المدى .

وما أعظم قولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالة بعث بها الى قائد من قادة الفتح الاسلامي العظيم : « أخوف ما أخاف عليكم ذنوبكم » .

لقد كان لا يخشى على الجيوش الاسلامية الزاحفة المنتصرة جيوش الامبراطوريتين الساسانية والرومية ، ولكن كان يخشى عليها مايقترفه المجاهدون من ذنوب ، لانه كان يعلم حق العلم بأن المسلمين لا ينتصرون بعدد ولا عدد ، فأعداؤهم اكثر منهم عددا وعددا ، ولكنهم ينتصرون بتمسكهم الشديد بمثلهم العليا التي جاء بها الدين الحنيف .

ومن اقوال عمر بن الخطاب حاثا على الخشونة محذرا من الترف « اخشو شنوا ، فان الترف يزيل النعم » .

ولم يكد الفاتحون يعودون ليستقروا في حواضر المسلمين الجديدة والقديمة وقد أصبحوا اغنياء بعد فقر ، الا وتطاول اكثرهم في البنيان ، ومالوا الى نعومة العيش وقدم الكوفة احد الفرس من خراسان ، وكان قد شهد بلده يسلم للفاتحين المسلمين ورأى الرجل الفارسي أبناء أولئك الفاتحين في حياة ناعمة رغيدة : تزوجوا الجواري ، واتخذوا القصور ، وتفاخروا بالمتاع ، فقال متعجبا مستغربا ، « أأنتم فتحتم بلدي » .

كلا ! ان الذين فتحوا بلده ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالاسحار هم يستغفرون ، وفي اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .

وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فبدا على

يديهم انهيار دولة الاسلام ، والله لايغيرما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وبتقادم الزمن ، وتعاقب الايام والشهور والاعوام ، ازدادت عوامل التفسخ في المجتمع العربي والاسلامي : شاع الجهل ، وساد الظلم ، وبرزت الانانية والفردية ، وضعف الجانب الروحي ، وتضخم الجانب المادي ، ونشبت الضغائن والاحقاد ، وتعدد الحكام ، وكثرت الطوائف ، وانتشرت الخرافات ، واستبدل الفرد والمجتمع الذي يفيده بالذي يضره ، وبدل الناس ما بانفسهم من خير وتعاون وانسجام .

وجاء الاستعمار فاضاف ضغثا على ابالة : فرق ليسود ، وجزأ ليحكم ، وشجع التفسخ الخلقي ، وتظاهر بهذا التفسخ ليقتبس العبيد اخلاق السادة ، واعطى المتفسخين ومنع الملتزمين ، وقدم الامعات واخر الثقات واستصفى الجبناء ، واستبعد الاقوياء ، وصافى الجواسيس وجافى الشرفاء ، وقرب الخونة وابعد الوطنيين ، واحتضن المارقين ، ولفظ المتدينين ..... فكان لخطط هذه اثر في نفوس العرب والمسلمين !

وكثيرا ما نسمع عن اثر الاستعمار على المستعمرين كلاما مبهما يعمم ولا يخصص .... ان اثر الاستعمار هو في سلب المثل العليا من المستعمرين، حتى يستطيع ان يحكم وهو قرير البال ، لان اصحاب المثل العليا اذا غلبوا ساعة ، فلن يغلبوا الى قيام الساعة !

قدم الجنرال غورو لاحتلال لبنان وسورية عام ١٩٢٠ ، وجاء معه جيش لجب ومع ذلك الجيش باخرة مليئة بالبغايا ، فقيل له : « واجب الجيش المقاتل مفهوم ، فما فائدة الجيش الآخر ؟ » ، فقال : « ان اثر هذا الجيش الاخر اعظم من الجيش المقاتل »

وصدق غورو ، وكان صريحا بجوابه ...

لقد عمل المستعمر في ايامه على اشاعة الفاحشة والتهتك في كل بلد حل فيه ، ونجح في مهمته أعظم النجاح .

ولست الوم المستعمر ، ولكنني الوم من يقبل ذلك من العرب والمسلمين ومن يقتفي آثاره في ترك التفسخ والانحلال يرعيان كالفار نفوس الاجيال .

والا فما أهداف اشاعة الفحشاء في العرب والمسلمين ؟